

تطور مفاهيم المعاملات التجارية في الفقه الاسلامي:

مخطوط حاشية ابن عبد الرحمن التلمساني
علي الحرشي (جزء البيوع) نموذجاً.

أ. كبير يحيى

أستاذ مساعد

في جامعة د. طاهر مولاي سعيدة

يمثل فقه البيوع ومتعلقاته من أهم قضايا المعاملات الاقتصادية والتجارية، فاهتم به الفقهاء باعتباره قضية فقهية تتعلق بالمعاملات وتنظيم الشؤون الاجتماعية، ومنذ بداية الاهتمام بهذا الفرع العلمي الذي ينظم حياة الناس، ويضبط حدودها كما يقنن لحقوق والواجبات على المكلفين من المسلمين، من أجل حفظ الحقوق العامة والملكيات الفردية، ورعاية ثم ضمان حسن سير شؤون الرعية ظهرت أعمال تحاول ضبط حدود هذا العلم والإمساك بالقوانين المسيرة له، فقد توالى الكتابات والاجتهادات حول الموضوع تباعاً - وإن لم تكن مستقلة بشكل كامل - آخذة التطورات الاجتماعية والقضايا المستجدة بعين الاعتبار، ثم البحث والتدقيق.

ومنذ أن كتب سحنون مدونته الفقهية في المذهب المالكي خاصة، تنابعت الكتابات حول القضايا الفقهية المختلفة - ومن بينها فقه البيوع والمعاملات - حتى جاء ابن الحاجب ووضع كتابه جامع الأمهات " منها

مختصره الفرعي اعتنى العلماء بشرحه شرقا وغربا...¹ فتبعه في ذلك العلامة خليل ابن اسحاق² في المختصر على المدونات الفقهية السابقة عليه، مثل المدونة والرسالة وهي جملة الكتب التي اشتهرت دون غيرها ثم توالى الشروح على خليل كونه اعترف في كتابه أنه لم يحل كل ألغاز هذا العلم. وأهم الشروح التي اشتهرت وبأن فضلها وسهولتها شرح أبي عبد الله الخرشى³. ونظرا لما صار يمثل من أهمية ظهرت عليه واشي ومنها حاشية سليمان العلوي المغربي وحواشي الجزائريين أمثال أبو طالب المازوني ومحمد بن عبد الرحمن التلمساني -موضوع بحثنا- وتلميذه أبي راس الناصري من بعده وغيرهم كثير.

ولعلب لاهتمام علماء المغرب العرب بالخرشى والزرقي في الفقه المالكي، دور في تطور الاجتهاد في المذهب المالكي خاصة، بعدما صار مجال فقه البيوع مستقلا عن فقه معاملات النكاح وقد -كانا بابا واحدا- وحدث هذا مع بداية القرن الثاني عشر.

وتأسيسا عليه يأتي اهتمامنا بدراسة هذه الحاشية وجزء البيوع على وجه الخصوص، وقد أولاها المؤلف اهتماما بالغا، وباعتبارها جهد يراكم على جهود سابقه، ويحاول أن يؤسس شبكة مفاهيم تطورت مع الزمن، وقد فرضتها التغيرات الحاصلة في المجتمع.

ترجمة المؤلف :

هو محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن الحاج التلمساني علم تلمسان وعالمها ذكره عادل نويهض في معجمه "محمد (فتحاً) بن عبد الرحمن

التلمساني من كبار فقهاء تلمسان وعلمائها، وبها نشأ وتعلم، رحل إلى المشرق وأخذ عن جماعة وعاد إلى تلمسان فولي قضاءها. ثم رحل إلى المشرق مرة ثانية⁴. الإمام العلامة شيخ أبي راس الناصري العسكري وقد أفرد له ترجمة لما ذكر شيوخه في كتابه فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته، فقال "ومنهم العارف الرباني، والهيكل الصمداني - من نسل عالم المذاهب الأربعة، أحمد بن الحاج المانوي⁵ - علم تلمسان، وعالمها، وقاضي الجماعة بها، شيخ الاسلام، الحبر الممام، الزكي الإمام، بحر متلاطم الأمواج، منهل يعذب بقاع الفجاج. جمع متفرقات العلوم، ومجهولها عنده كالمعلوم، وذو عفة وصيانة، نزاهة وديانة.

ولادته ونشأته :

ولد في تلمسان ونشأ بها ثم رحل إلى مصر لطالب العلم بالأزهر الشريف، ثم عاد إلى تلمسان وتولى قضاءها، ثم تركها مكرها ومرغما، وعاد إلى المشرق "... ولما عزل عن القضاء والمناصب التي تحمد وترضى، سمت له همته، ونمت به رفعته إلى الرحلة إلى المشرق ثانيا، غير متكاسل ولا متوانيا، ونبذ تلمسان نبذا كلياً، فودعها وداع من لا يعود، فأعرض عن العشائر والأقارب والأهل وأضرحة الجدود... ولحق بالحرمين الشريفين..."⁶.

شيوخه :

قال الناصري "... قد رحل إلى مصري طلب العلم الظاهر، وباطنه المتظاهر، فأخذ عن عمن يعيد وييدي، كالشيخ السمان⁷ ومحمود الكردي⁸، وغيرهما

من له تفصيل ومجاملة، بعلمي المكاشفة والمعاملة، حتى فتح مختومها، واتقن معلومها، وأوضح أشكالها، وحل أقفالها، فهو وحيد الأوان، وعلامة الزمان. ما قرن به عالم إلا رجحه، ولا ألقى إليه مبهم إلا وضحه. عدل في أحكامه، مراقب إلى الله تعالى في فعله وكلامه، بحق الله قائم، لا تأخذه فيه لومة لائم، له نزاهة عن الدنيا، وهمة نيطة بالثريا، سمعت في درسه فوائد وأهدى لتلامذته موائد، لاسيما علم المعقول، فما لأحد فيه حصول. ألحق عوام تلمسان بالفقهاء، وسفهاءهم بالترهات ورحمه الله. وبرعايته تولاه...⁹.

مؤلفاته :

ترك المؤلف كتب المعروف منها اثنان ذكرهما عادل نويهض وقال "...من آثاره حاشية على صغرى السنوسي،¹⁰ وياقوتة الخواشي في حل ألفاظ الخراشي وهو الشرح الكبير على متن خليل في فقه المالكية لأبي عبد الله الخراشي المتوفي سنة 1101 وهو أول من تولى مشيخة الأزهر..."¹¹.

وفاته :

إن كنا لا نعرف تاريخ ميلاده، فلا نعرف تاريخ وفاته بالتحديد، لكن من تاريخ وفاة شيوخه وحياة تلامذته نعرف أنه ولد وتوفي خلال الثاني عشر بين 1100 و 1200 تقريبا فقد تتلمذ عليه الناصري وهو مولود في 1150. أما الشيخ السمان وهو أحد شيوخه فقد توفي سنة 1192.¹²

صحة نسبة المخطوط للمؤلف :

من نسب للمؤلف هذه الحاشية الشيخ مرتضى الزبيدي،¹³ في بحر الأنساب¹⁴

وعادل نويهض في معجمه وسماها: ياقوتة الحواشي في حل ألفاظ الخراشي.¹⁵ كما أنها كانت تدرس في المغرب حيث يقول الحفناوي في تعريف الخلف بأن الشيخ المجاوي كانت يدرسها لطلبة العلم. وقد نقل عن أحد تلامذته (العلامة أحمد بن حسون) أنه قرأها عليه في فاس.¹⁶

التعريف بالمخطوط :

ياقوتة الحواشي على شرح الإمام الخراشي: تأليف محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن محمد ابن الحاج اليبدري التلمساني. في ثلاث أجزاء منها الأول والثالث في مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية الدار البيضاء المغرب تحت رقم 519 و 659 على التوالي. وتوجد نسخة أخرى في معهد المخطوطات بالجامعة الرياض في السعودية وعنها صورة في مكتبة جامعة الملك سعود رقم 5072 وهي النسخ المأخوذة عن نسخة بالخزانة العامة بالرباط (276/1). وهي النسخة التي بين أيدينا. عدد صفحاتها 224 ورقة في كل ورقة صفحتين من المخطوط.

وصف النسخة :

جزء البيوع من الياقوتة في الفقه المالكي ويقع في بداية الجزء الثالث يمثل (36 ورقة) من الحاشية وأوصافها:

- حاشية على شرح الخراشي.
- النسخ عبد الرحمن بن محمد، سنة النسخ: 1174.
- 224 ورقة في مجلد (الجزء الثالث).

» نسخة جيدة، بخط مغربي مقاس (21.5 سم - 31.5 سم).

أهمية المخطوط:

يشكل المخطوط أهمية كبيرة في مجال الفقه الإسلامي عامة، وفي ميدان المعاملات الاقتصادية خاصة ومنها البيوع والرهن والايجار، وما يتصل بها من تفاصيل وجزئيات فرعية. وتأتي أهميته من:

1- التطورات والاجتهادات التي واكبت هذا الصنف من المعاملات في الفقه الإسلامي والتي تولدت عن تطور الحياة وتعدد بعض تفاصيلها. حتى ذهب العلماء من شراح المختصر والمعلقين عليه إلى فصل جزء البيوع عن قضايا النكاح حيث كانا ملتصقين في المختصر (الأصلي).

2- أنها تأخذ بعين الاعتبار كل ما كتبت حول الموضوع حيث جاءت الحاشية حافلة بالفتاوى والاجتهادات المتعلقة بالموضوع وكل ما كتبت حوله، وعبر كل فترات التاريخ الإسلامي حتى عصر المؤلف.

3- وتتجلى أهمية الموضوع والمخطوط وقضاياها إلى درجة تحوله إلى قضية خاصة بالغة الأهمية حيث غدا الفقهاء يخصصون لها كتابا خاصا، لعل في الشيخ أبي حامد العربي بن أبي العباس أحمد بن أبي عبد الله التاودي بن سودة المري أحسن مثال فمن مؤلفاته "...وحاشية على شرح الخرشي من البيوع إلى الاجارة..."¹⁷

4- إحصاء المصطلحات وضبطها، وهو ما يشكل إضافة لعلم المصطلح من جهة، وتطوير مصطلحات المعاملات التجارية والاقتصادية والنفعية، بما يواكب التطورات الحاصلة في مختلف جوانب هذا العلم.

- 5- تسجيل كل شاردة وواردة فيما يخص نوازل وقضايا المعاملات الاقتصادية ومنها الخاصة والطارئة في هذا الباب الفقهي المتعلق بحياة الناس اليومية. وهو ما يشكل مراكمة علمية تستحق كل عناية، ويبنى عليها عبر الأجيال.
- 6- يمثل المخطوط درجة عالية في مجال الإنتاج العلمي المحلي فهو مغربي المصادر جزائري الطابع، يأخذ بالحسبان الإسقاطات الميدانية المحلية التي تختلف عن غيرها من المناطق الأخرى.

مصادر المؤلف في حاشيته على الخرشي :

يعتمد المؤلف على عدة مصادر أكثرها مغربية وأغلبها معاصر وقريب من عصر المؤلف. كما لا يغفل القديمة والأصلية، فهو ينقل فتاوى ورسائل ومنظومات في مجال فقه البيوع ومعاملاته المختلفة. وكثيرا ما يحيل إلى مصادرها، فمن أمثلة ذلك:

- وفي كلام بعض فقهاء الوقف كما نقل عن ابن شاس كما في تبصرة ابن فرحون¹⁸ والسوداني¹⁹ على مختصر خليل (ورقة 3 من المخطوط).
- حاشية الشيخ حلو على مختصر الشيخ خليل (ورقة 3 من المخطوط).
- عن العباسي²¹ ومثله في المعيار²² (ورقة 3 من المخطوط).
- ومثله للشيخ العقباني²³ والباجي (ورقة 3 من المخطوط).

محتوى المخطوط (جزء البيوع) :

1) وصف المحتوى :

محتويات المخطوط تنقسم إلى متن أصلي يشمل الشرح (الخرشي) والتعليقات

الخاصة بالمؤلف، وهي عبارة عن شرح مصطلحات أو زيادة توضيح ما ظن المؤلف أنه صعب الفهم.

كما يشمل المخطوط في حواشيه بعض القضايا الفرعية المتعلقة بالموضوع. وهي عبارة عن مسائل وقضايا طرحت ونوقشت في كتب الفقه. أو مسائل واجهت المؤلف نفسه، فأجاب عنها. ويحتوي المخطوط مقتطفات من كتب علماء سابقين وفتاوى ناقشت موضوع البيوع، إلا أن المؤلف يعلق عليها موافقا تارة، ومعارضاً تارة أخرى. كما يورد ما أغفله سابقه في الميدان. وهي زيادات هامة في مجال المعاملات وإشكالياتها المختلفة مما يطرأ عليها من تغيرات وقضايا فرعية تشكل عمود أساس في تطور البحث العلمي.

يحتوي المخطوط أيضا منظومات أو مقاطع في فقه البيوع، وهي قصائد توضع أصلا للحفاظ وفهم الموضوع وتسهيله على طلبة العلم.

(2) تفاصيل المحتوى:

- بداية المخطوط عبارة عن فهرس بالمواضيع الخاصة بجزء البيوع ويشمل مجموعة أبواب ومنها ما يحتوي فصول وهي.
- ❖ باب ينعقد البيع مما يدل على الرضا.
 - فصل علة طعم الربا اقتيات وادخار.
 - فصل في بيوع الآجال.
 - فصل ذكر فيه حكم بيع العينة.

- فصل إنما الخيار بشرط.
- فصل في المراجعة.
- فصل يتناول البناء والشجر والأرض.
- فصل إن اختلف المتبايعان في جنس الثمر.
- ❖ باب السلم.
- فصل في الغرض.
- فصل في المقاصة.
- ❖ باب في الرهن.
- ❖ باب في الفلس.
- ❖ باب في بيان أسباب الحجر.
- ❖ باب في الصلح.
- ❖ باب في الحوالة.
- ❖ باب في الضمان.
- ❖ باب في الشركة.
- فصل في المزارعة.
- ❖ باب صحة الوكالة.
- ❖ باب في الإقرار.
- فصل في الاستلحاق.
- ❖ باب في الأيداع.

❖ باب في حكم العارية.

❖ باب في الغضب.

- فصل وارد زرع فاستحقته.

❖ باب في الشفعة.

❖ باب في القسمة.

❖ باب في القراض.

❖ باب في المسافات.

ويحتوي كل باب أو فصل المتن الأصلي وتعليقات الخرشى، وشرح على الشرح وهو أصل الحاشية. كما يحتوي المخطوط مادة علمية متنوعة ومتفاوتة الأهمية في باب المعاملات التجارية:

➤ تعاريف علمية مضبوطة في بداية كل باب.

➤ ضبط للمعاني والمصطلحات وعرض آراء العلماء وشروحهم لها. كما يشمل تحديد لفروع كل تخصص أو قضية من كل باب من أبواب هذا العلم.

الهوامش

- ¹ شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، محمد بن محمد مخلوف، ص 167، ترجمة رقم 525 وابن الحاجب متوفي سنة 646 للهجرة.
- ² هو ضياء الدين أبو المودة الجندي المتوفي سنة 782، له شرح على مختصر ابن الحاجب ترجمت له كل كتب التراجم باستفاضة.
- ³ المتوفي سنة 1101 للهجرة، النبوية الشريفة.
- ⁴ معجم أعلام الجزائر، عادل نويهض، ص 78.
- ⁵ المتوفي قريبا من 930 هجرية، أنظر، ترجمته في البستان، ص 9. وفي تعريف الخلف برجال السلف للحفناوي (ج 2، ص 288). فتح الإله ومنتته في التحدث بفضل ربي ونعمته، أبي راس الناصري، ص 56.
- ⁶ فتح الإله ومنتته في التحدث بفضل ربي ونعمته، محمد أبي راس الناصري، ص 56.
- ⁷ السمان المدني، المتوفي سنة 1192، وهو شيخ التاودي بن سودة المري.
- ⁸ وهو محمود بن أبي زيد الكردي الأزهرى وشيخ أبي راس الناصري المعسكري.
- ⁹ فتح الإله ومنتته في التحدث بفضل ربي ونعمته، أبي راس الناصري، ص 56.
- ¹⁰ محمد بن يوسف السنوسي صاحب العقائد والصغرى، هي جوهرة التوحيد في عقيدة الأشعرية، توفي سنة 895 هجرية، ترجمته في البستان، ص وما 231.
- ¹¹ معجم أعلام الجزائر، عادل نويهض، ص 78.
- ¹² فهرس الفهارس، عبد الحي الكتاني، ج 2، ص
- ¹³ الزبيدي عالم مصر المشهور، صاحب تاج العروس في شرح القاموس وكتب أخرى منها في الأنساب وفهارس الحديث، أخذ عنه الناصري أبي راس وعلماء جزائريون آخرون. وتوفي سنة 1205.
- ¹⁴ بحر الأنساب، تعليقات الزبيدي، ص 311.
- ¹⁵ معجم أعلام الجزائر، ص 79.
- ¹⁶ تعريف الخلف برجال السلف، أبي القاسم الحفناوي، ج 2، ص 295.

- ¹⁷ شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، محمد بن محمد مخلوف، ص377. أما الشيخ أبي حامد فقد توفي سنة 1229.
- ¹⁸ المتوفي سنة 799، وله شرح على مختصر ابن الحاجب الفرعي ترجمته في شجرة النور، مرجع سابق، ص22.
- ¹⁹ صاحب ديل الديباج وهو المنهاج المتوفي سنة 1032، ترجمته في تعريف الخلف برجال السلف، ج1، ص14.
- ²⁰ المتوفي سنة 875، وله شرحان على المختصر، ترجمته في شجرة النور، ص259.
- ²¹ أحمد بن محمد بن محمد بن محمد العباسي السملالي الفقيه الأصولي، المتوفي سنة 1154، شجرة النور، ص289، ترجمة رقم 1120.
- ²² المعيار المغرب عن فتاوي إفريقيا والمغرب، للونشريسي أحمد بن يحيى بن عبد الواحد المتوفي سنة 914 هجرية، وهو مطبوع متداول.
- ²³ توفي الشيخ أبو الفضل قاسم العقباني، سنة 845، له تعليق على ابن الحاجب الفرعي، شجرة النور، مرجع سابق، ص255، ترجمة رقم 925.